ولكن الشيخ يعرف أمره كله حق المعرفة، وهو يعذر تقصيره ويعفو عن تخلُّفه، ومن الجائز أن يصرفه هذا كله عن بعض الرفق بابنه خالد، ولكن خالدًا رجل قد توسط العقد الثالث من عمره؛ فهو لا يحتاج إلى العناية والعطف كما يحتاج إليهما هؤلاء النسوة الضعاف، وهؤلاء الصبية الصغار، وربما كان الحق على خالد أن يُعنى بأبيه وإخوته أكثر مما يفعل إلى الآن، ولكنه شاب، وللشباب ضلاله المؤقت، وخالد مغرور بمنصبه الجديد، ولا شكَّ في أنه سيثوب إلى نفسه، وسيذكر أنَّ حِمل أبيه ثقيل، وأنه يستطيع أن يخفف بعض هذا الحمل، أليس يقبض أربعة جنيهات في آخر كل شهر؟! كل هذه خواطر لعل نفس علي قد تحدثت بها إلى علي حديثًا همسًا لا يكاد يسمع! ولكنها تحدثت به على كل حال، فهي خليقة أن تلام، والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي، وعليٌّ حريص كل الحرص على أن تناله رحمة الله؛ فهو يلوم نفسه لومًا عنيفًا، ويجتهد في العبادة اجتهادًا شديدًا، ويُنفق في غرفة أم خالد ليلة قائمة هائمة بذكر الله جاهرة بتلاوة القرآن، قد طُرد عنها الشيطان طردًا، ورُدَّ عنها النوم ردًّا، حتى إذا صلى علي الصبح وشرب القهوة نازعته نفسه إلى الراحة وشيء من النوم، فيتجهم لها ويغلظ عليها ويشتد في تأديبها، ويقسم لا يذوق النوم حتى يذهب إلى متجره ويعود إلى غدائه؛ فإذا صلى الظهر نام وطلب إلى هناء أن توقظه ليدرك صلاة العصر، قبل أن تفوته، فإذا صلى العصر سعى إلى شيخه فشهد معه صلاة العشاءين وحضر معه حلقة الذكر.

وفي ذات يوم ذهب خالد إلى متجر أبيه بعد صلاة العصر، فرآه جالسًا يدير ذكر الله على سبحته تلك؛ فسلم الفتى، ولكن عليًّا لم يرد عليه سلامه ولم يرفع إليه رأسه، وإنما ظل مطرقًا يُدير ذكره في أناة، يمد صوته بحروف المد أكثر مما تعود أن يفعل، ويساقط حبات المسبحة في بطء متكلف، حتى إذا أدار ذكر الله على سبحته من طرف إلى طرف استغفر الله فأطال استغفاره، وصلَّى على النبي فأكثر الصلاة عليه، ووهب ثواب هذا كله للشيخ رحمه الله، ثم أدخل سبحته في جيبه مستأنيًا، ثم مسح وجهه بيديه متشهدًا، ثم التفت إلى خالد وهو يقول: ألست بخير يا بني؟ إني لم أرك منذ أمس. قال الفتى: لقد أمضيت صدر الليل عند الشيخ، وغدوت إلى عملي وجه النهار، وجئت … فقاطعه علي رفيقًا به وهو يقول: جئت لتراني، ولتقص عَلَيَّ ما كان بينك وبين الشيخ والحاج مسعود في خلوتكم أمس؛ فقد أُنبئت بهذه الخلوة. قال خالد: نعم. قال علي: عفا الله عن الشيخ! فلو كان أبوه حيًّا لكنتُ رابع ثلاثتكم أمس، وعفا الله عنك يا بني! فلولا أنك حديث السن لما قرأت فاتحة الخطبة وأبوك غائب، ولكنك رأيت الشيخ يدعوك فلم تستطع له خلافًا،